لیلیان

رشا شمس

obeikan.com

ليليــان

صـوفي هـيرتس، قطعـة الـسكر التـي أحالـت مـرارة حياتـه شـهداً، وأضـاء وجودها عُتمة أيامه، رأها مرحة، مُتفائلة، لا تفارق الابتسامة وجهها الصبوح في مكتب التوظيف الذي كان يزوره بانتظام بعد سنوات قضاها في غربته الموحشة جاف القلب، شريد الذهن، كانت الغربة قد صهرته وأكلت لوعة الحرمان فؤاده، إلا أنه لم يرغب في العودة إلى وطنه بعدما أنهى منحته الدراسية، قَبِلَ بعدد لا بأس به من الأعمال المتواضعة إن لم نقل أعمالًا حقيرة لا تتناسب مع أصوله العريقة ولا تتماشى مع ما نسجته له أسرته من أحلام عريضة براقة لمستقبل مُشرق مُضيء، كثيرًا ما حَدَّثَ نفسه مُطمئِنًا لها أن الفرصة الحقيقية لم تأتْ بعد، وكم على المرء أن يتصيد ويُكافح لتحقيق مُبتغاه، لم يرْ في وطنه ما يدعوه للعودة ولا ما يُغريه بها رغم وحشة الغربة وبرودة لياليها.

أحبَّ أن يكون ذاته لا ما يريده له والداه، أخبرهما بنيته البقاء في الغرب الذي وبكل تأكيد سيخلق منه رجلًا آخرًا يختلف كل الاختلاف عن ذاك الشاب الذي ركب الطائرة منذ سنوات، أراد أن يختار شريكة حياته بملء إرادته وبكامل وعيه، يريدها مفعمة الثقة بالنفس، طموحة وجذابة، ذكية وذات إيقاع سريع يواكب العصر ويجاري مُتغيراته وقفزاته، لم يكن راغبًا أبدًا في زواج تقليدي يسير وفق العادات والتقاليد، يُرضي الأهل والأقارب ويُنجب العزوة ويشد الظهر ويرث الموروث، لم يرغب في هنية ابنة عمه ولا في نعيمة ابنة خاله، ولا في أي ابنة نبتت في أرض الكَفْر الذي جاء منه.

كانت صوفي واحته الظليلة التي ظهرت فجأة في صحراء حياته الجرداء، ارتوى بمائها حين كاد الحرمان أن يُجففه دون أن تسأله شيئًا، كانت صوفي أُمنية مستحيلة تردد كثيرًا في تحقيقها فإذا بها تقترب منه أكثر وأكثر وتمد بينهما جسورلا متناهية من التواصل لتبتلع كل فراغ بينهما، دائمًا مُتشحة بالأخضر الذي تُفضله كثيرًا عن غيره، يشعر بالزهو لأنه بجانبها ومعها وبجوارها، تزوجها ليهنأ معها وبها ويُحيل عَتمة أيامه ضياء وإشراقًا كذلك الذي تلمع به عيناها كلما طالعها، فكانت له كما أراد.

سنوات هانئة مرت على زواجهما الآن ووالداه يدعوانه بل يرجوانه العودة للوطن ورويدًا رويدًا بدأ الحنين يدب في أوصاله، وراحت مشاعره نحو أهله واصدقائه تتدفق برفق إلى جوفه، تفهمت صوفي الأمر ولم تنزعج حين أخبرها بحاجته الملحة لذهابهم جميعًا إلى وطنه في زيارة لأيام قصيرة تحقيقًا لرغبة والديه واستجابة للهيب حنين يستعر داخله، تفهمت لكنها اعتذرت عن مرافقته في تلك الرحلة لظروف عملها ومرض جدتها العجوز التي تحتاجها بجوارها، فربما كانت تلك أيام "أوجيني" الأخيرة، فلقد أصبحت شبه مُقعدة بالكاد تتحرك على كرسيها المتحرك ولا تفتأ تُنادي على صوفي كلما احتاجت شيئًا، فقد باتت حفيدتها هي مخرجها الوحيد من عجز صامت يتقدم نحوها بسرعة يوم بعد يوم.

اقترحت عليه صوفي السفر وحيدًا ليهنأ بدفء أسرته هذه المرة مع وعد صادق بمرافقته في المرة القادمة، لا ضير من ذلك، تولت صوفي عنه مهمة شراء ما يحتاج، ملأت حقيبته بهدايا ثمينة لأفراد أسرته فردًا فردًا ولم تنس أحدًا وكأنها أرادت أن تعتذرعن تخلفها الإضطراري عن مرافقته، ودعته مُبتسمة في المطار

وهي تحمل طفلته ليليان التي تعلقت بعنق أمها بفطرة تُذيب القلب إلا أنها أطلقت نحوه ابتسامات تُغلف كلمات سحرية خرجت مُتعثرة من بين شفتيها اللؤلؤتين تطلبانه بالعودة سريعًا، مال عليها يحملها بين ذراعيه وطبع قُبلة حانية على وجنتيها مُجددًا وعده بالعودة في غضون أسابيع لا أكثر، فالأمر هين ولا حاجة لإطالة فترة الغياب.

لم يستطع أن يقاوم دموعًا انهمرت بغزارة من عيني والدته " الحاجة أمينة " التي تشبثت به كغريق يتشبث بطوق النجاة، قابلت دموعها دموعه وجعل يرمقها وهو صامت لا تُسعفه الكلمات، يُمرر يده على رأسها في حنان ويداه ترتجفان، بينما فرحة طاغية استولت على أبيه " الحاج رشيد " حين رآه، قذف نفسه بين أحضانه وانحنى يقبل يده فالتقطه أبوه وعانقه طويلًا، أحس خوفًا يزحف داخله ورهبة تنتشر بين جنباته لا يجد لها تفسيراً، استقبله أطفال القرية ببهجة لم يرها من قبل، وكأنهم كانوا على موعد معه، ساروا معه في الطرقات تزفه ضحكاتهم وأهازيجهم التي انطلقوا يُرددونها هنا وهناك عن عودة الطير المُهاجر، راقت له فرحتهم واستقبالهم، مد يده في جيبه وأغدق عليهم أموالا يضعها بعفوية في كفوفهم الصغيرة فتنطلق أبصارهم بينه وبين عطيته في إنكار واستفهام، لا يكادوا يصدقون أعينهم من عظمة المبلغ فيُمرر يده على شعورهم ويبتسم قائلًا: إنها لكم صدقوني.

تركه الأطفال في نهاية جولته وانشغلوا بجمع بعض كيزان الذرة إلا "سلمى" الطفلة الصغيرة التي ظلت مُتعلقة بكفه تُصر أن تُريه بيتًا من القش تختبأ به حين تريد، أرادت أن تخُصه بسرها الثمين فوافق مرحبًا، راحت تعدو في فرح وتشير إليه أن يتبعها مُخترقًا حقول الذرة في شوق لتحري الأمر، ظل يراقبها

باهتمام وهي تشرح له الطريق إلى مخبأها وخلايا فؤاده تتمدد وشرايين عقله تتفتح وشرد يفكر في صغيرته ليليان، فسلمى تُشبهها كثيرًا في جمالها وعفويتها وتلك البراءة الممزوجة بشقاوة ساحرة تأسر فؤادك فتُسارع لتلبية طلبها بمجرد أن تتفوه به، فلقد ملكت عليك قلبك واحتلت بدلالها عقلك ليليان الصغيرة ما عساكِ تفعلين الآن؟

ليليان، يا ترى ماذا تفعل الآن؟ وماذا ستفعل في قادم الأعوام؟ قريبًا ستلتحق بالمدرسة، أي مدرسة تلك؟ وماذا ستتعلم؟ وأي لغة ستتحدث؟ وأي مبادئ ستُغرس في نفسها؟ وبماذا تؤمن؟ وأي عقيدة ستعتنق؟ هي ابنته نعم، من لحمه ودمه نعم، لكنه لا يستطيع أن يفرض عليها أمرًا ولا أن يُحدد لها طريقًا أو مسلكًا، لا يمكنه أن يضمن ما ستكون عليه وما ستختاره لنفسها، ابنته نعم، روحه نعم، لكنها ولدت في مجتمع يجعلها غريبة عنه مهما كان قريبًا، ما أعمق الهوة التي تفصل بينهما وما أقسى الخلاف الذي يحول دونهما، ليليان الحبيبة، كم طاقت نفسه ليهبها اسما شرقيًا، أرادها " ليلى" لكنه خشي أن يصير اسمها مهترئًا أجوفًا، فارغ من المعنى، خالي من المحتوى، ستلويه ألسنتهم، سيصير " لِيلا "، مسخًا مشوهًا من اسم أراده، لم يكن يُدرك من قبل قوة حروفنا الهجائية ولا عمق ما نُرصعها به من حركات لتكن كما نريد.

" كم كنت مُخطئًا أنانيًا حين أردت لنفسي حياة خاصة، جديدة، مختلفة، بعيدًا عن أصولي، شريدًا عن جذوري دون أن أفكر مليًا فيما سأمنحه لكِ بُنيتي، أحببت صوفي نعم، لا أُنكر لكنها أبت إلا أن تصهرني في مجتمعها وتُطهرني من جهل وتزمت وتخلف ترى موطنه شرقيتي، هل يُمكنني الآن أن أواجهها بما أريده

لابنتي، أريدها فتاة شرقية يذوب في عشقها رجل شرقي، لا أريد لها رجلًا تائه مثلي، رجل ذو مشاعر مترددة، رجل غريب عن نفسه وعن وطنه، ليليان لا أريدكِ ضحية أنانيتي ومجوني واستهتاري، فإن كانت صوفي قد نجحت في أن تجعل مني رجلًا غربيًا فلن أتركها تسقيكِ روافد الغرب مهما كان الثمن".

❀❀❀

ثلاث أشهر كاملة لا يتوقف بينهما النقاش الذي أحتدم كثيرًا دون أن يستطع أي منهما إقناع الآخر بما يرى، وبما يُريد، صار النقاش جدالًا يمتاز بالحدة وأصبح من العادي أن تتعالى أصواتهما بالصراخ صباح مساء، أخذها باللين حينًا وبالشدة حينًا، وأخذته بالعطف حينًا وبالرفض حينًا دون جدوى، وأصبحت ليليان تنقل بصرها بينهما في حزن يختلط بالغضب كانت لا تفهم ما يدور بينهما، أي شيء يمكنه أن يُحيل جنتها نارًا مضطرمة لا تهدأ أبدًا، كثرت نوبات بكاؤها خاصة ليلًا، أصبحت تقفز مذعورة من أي صوت مُفاجئ قد يطرأ، ترفض النوم في سريرها وتدفن جسدها الصغير في أحضان أمها، تقبض أناملها الرقيقة على منامتها بتشبث، لم تعد تركض فرحًا وهي تُلقي بجسدها الضئيل في أحضان والدها عند عودته للمنزل ليلًا.

ثم حدث أن هدأت العاصفة، أبدت صوفي اقتناعًا برأيه ورضوخًا لإرادته، تُحبه في كل الأحوال وستذهب معه أينما أراد، أكدت حُبها له بأن تركت عملها المصرفي رغم قوة مركزها الوظيفي هناك بل شرعت في تنفيذ قراره بالعودة إلى الوطن، ولما لا إذ وعدها شريف أن يُحقق لها كل سبل الراحة والحياة الكريمة اللائقة في وطنه، شكر لها صنيعها وجميل إيثارها وانتصارها لوحدة العقد وترابط

حباته، انهمك في مواكبة قبولها وأخذ يعمل على إنهاء الأوراق المطلوبة وكافة الإجراءات اللازمة للرحيل كما كلف مكتب عقارات في عاصمة وطنه بتجهيز فيلا جميلة على أحدث طراز في أحد المدن الجديدة تُطوقها حديقة خلابة، فهو يعلم جيدًا كم تعشق صوفي الأشجار والأزهار وخاصة القرنفل، أراد أن يكافئها ويحوذ مجددًا على ثقتها فيه ودعمها الكامل له بعد تلك العاصفة التي مرت بحياتهما في الشهور الماضية.

عاد ذات مساء مُنهكًا بعد يوم شاق ليجد البيت خاليًا خاويًا على عروشه، رحلت صوفي واصطحبت معها ليليان وكل متعلقاتها الشخصية، أطلق صرخة مُدوية اخترقت ظلام الليل البهيم، لقد أخذته صوفي على غرة، أحكمت تدبير الأمر وأجهزت عليه فأصابته في مقتل، بحث عنها في كل مكان، أقسم له والدها أنه لا يعرف من الأمر شيئًا، لم تخصه صوفي بخبر، لم تُشركه في أمرها، فقط أخبرته بإسم المصحة التي أودعت فيها جدتها أوجيني متعللة باشتداد مرضها وحاجتها الشديدة لعناية طبية مستمرة، لم يشك في الامر فلقد تحملت عنه ابنته وبكل ود وحب العناية بأمه العجوز المصابة بالزهايمر وآن لها أن ترتاح من عناء تلك المسئولية، أطلق " السيد هيريتس" لعناته على شريف، فلم تعد صوفي ابنته كما كانت كسابق عهدها معه قبل أن تعرف شريفًا وتتخذه زوجًا.

لقد اهتزت علاقتهما بظهور ذاك الضلع الثالث الذي لم يكن مرغوبًا فيه أبدًا، لطالما كان شريف حاجزًا بينهما لم يستطع معه السيد هيرتس أن يضمها إلى صدره كما يضم الآباء فلذات أكبادهم، لم تنس صوفي أبدا موقف أبيها الرافض لزواجها من ذاك الشرقي الأرعن طوال تلك السنوات، لم تكن ثمة علاقة تربط بين شريف

وهيريتس حتى أن الأخير لم يحمد لشريف صنيعه حين قبِل بوجود والدته "السيدة أوجيني" في بيته، اكتفى بأن يُرسل لها مبلغًا ضخمًا شهريًا لتتمكن صوفي من القيام بكل ما تحتاجه جدتها المريضة فما عساه يجمعهما الآن؟ تبادلوا الشجار والسباب وهذا جُل ما صار بينهما ثم صرخ كل منهما في وجه الآخر مذعورًا من حقيقة اختفاء صوفي وكأن خبر اختفاءها إعصارًا تدفق فجأة نحوهما في قوة وجنون.

ثلاثون يومًا كاملةً قضاها شريف في بحث مضنٍ لا ينتهي عن زوجته وابنته دون أن يقتفي لهما أثرًا، وغاية ما وصل إليه أنهما قد غادرا البلاد عشية اختفاءهما من المنزل، حلقت بهما الطائرة إلى إبردين باسكتلندا، ثورة عارمة تمور في صدره، دماء حارة تجري في عروقه كلما راودته ذكرى أيام سعيدة كانت تجمعه بهما...

و أخيرًا وصلته رسالة تفوح بعطر صوفي وتحمل بين طياتها ابتسامات ليليان

"**عزيزي شريف**: هذه هي ليلتي المائة بدونك، دون أن أنام بين ذراعيك، دون أن تشاركني فراشي فتختلط أنفاسنا معًا، لقد خذلتني وكسرتني، فبعد كل هذه السنوات وبعد كل ما جمع بيننا وكل ما حققناه معًا ها أنت تتذكر فجأة كل الفوارق التي تفرقنا وكل الإختلافات التي تحجب بيننا، الآن تُحدثني عن الدين والبلد والعادات والتقاليد، و كأنك قد أدركت للتو أنك شرقي ذو دم حام وأنا غربية دمي بارد، أنت مسلم وأنا مسيحية، وإن كنتُ أرى أنك رجل مهووس من بلد فوضوي سواء كنت مسلمًا أو مسيحيًا، لقد تزوجتكَ شريف لأني أحببتك وبصدق، أحببتك دون أن التفت إلى ما يُفرق بيننا، أردت فقط أن ننصهر معًا، أن أُشاركك كل شيء وتُشاركني كل شيء، أن تكون لي أقرب من ذاتي، أن أعبد

الرب فيك، أن أراه في وجهك وأسمعه في صوتك، استغفره على صدرك وأصلي له في محراب قلبك وهذه هي جريمتي وخطيئتي،.

لكن الرب أراد ان يختبرني بحب رجل مغرور، متقلب المزاج، ضائع غريب الأطوار، فاقد الهوية ذو معالم مُنطمسة، فالرجل الذي عشقته لا يريد لإبنتي الصغيرة أن تكون مثلي حين تكبر، يخشى على ابنته من أن تسقيها أمها عاداتها كما سقتها لبنها، يخشى عليها من تلك المرأة التي أحبها وأخبرها بحبه مرارًا وهو يُقبِل قدميها في لحظاتهما الحميمة، وكان يستحم معها في حمام واحد ويشاركها فرشاة أسنان واحدة قبل أن يوقعا معًا على ورقة بالية في مكتب الشهر العقاري، ورقة تُعلن للجميع أنهما زوجان، ألم تُقسم لي حينما عرضت عليَّ ارتداء قميصك بدلًا من بلوزتي التي قطعتها أغصان شجرة الزيزفون في رحلتنا الخلوية الأولى أنني زوجتك أمام الله قبل أن نعقد القران؟! أي قسم كان ذلك؟! وبأي إله أقسمتَ؟! هل يحنث الرجل بقسم أطلقه جاثياً على ركبتيه أمام امرأة ليُخبرها كم يُحبها؟! هل كان قسمًا أم كان فخًا لاصطيادي؟! هل كنت رجلا آنذاك؟!

خُسارتي فيك أعظم من أن أتجاهلها وأُكمل معك طريقًا بدأناه مُتشابكي الأيدي منذ عشر سنوات وكأن شيئًا لم يكن، أحببتكَ رجلًا ظننته صادقًا ولكني أدركتُ غفلتي لاحقًا، لقد تزوجت رجلًا أرعنًا أهوجًا كاذب بالفطرة، تزوجت شرقًا مضطربًا تائهًا في مفترق الطريق، تزوجت شمسًا ملتهبة قاسية الشعاع تصهر الكون حولها، تزوجت فكرًا مزدوجًا فوضويًا أنانيًا لأبعد حد، يُبيح لنفسه ما يشاء وقتما يشاء، لقد تطهرتُ منك ومن حبك ولا حاجة لي بك، ليليان الآن تُشاركني فراشي وسأكتفي بها، كانت تسأل عنك كثيرًا حين حضرنا إلى هنا

دونك، كانت تسأل كل يوم فابتسم لها وأضمها إلى صدري بقوة وأخبرها أنك لابد آتٍ عن قريب، فتضحك ببراءة وتطوق عنقي وتطبع قبلتها النارية على شفتيَّ وتعاود الركض خلف قطتها تلهو وتلعب، رويدًا رويدًا خفتت أسئلتها عنك وقلت مراتها، يبدو أنها اعتادت غيابك ولم تعد تهتم وسيأتي يوم لن تسأل فيه عنك، وأقسم لك بقدر ما أحببتك وبقدر خسارتي فيك سأحميها منك، سأمنعها عنك سأخبرها أنك كنت نخلة على شاطئ حياتي وقد اقتلعها التيار وقذفها بعيدًا بعيدًا جدًا"

انتهت الرسالة وكادت أنفاسه تنتهي معها، ستحرمه صوفي من ليليان، ستحرمه بهجة عمره ومُضغة قلبه، لقد أقسمت على ذلك وستبِر بقسمها، جمرة نار مستعرة استقرت في جوفه، طار إلى اسكتلندا، جاب مُدنها وشوارعها، تفحص وجوه أفرادها يبحث بينها عن ضالته المنشودة وكنزه الثمين، علم أن صوفي قد تركت البلاد في نفس توقيت إرسالها الخطاب له، هي تعرفه جيدًا، تقرأ أفكاره، يُمكنها التنبؤ بنواياه، تعرف مُسبقًا أنه سيطير إلى حيث تكون، لقد ساعدها مصدر مسؤول على السفر إلى وجهة غير معلومة، دثرته الرهبة وأرهقه الفزع، تملكه إحساس بالتضاؤل وزاد من تضاؤله أن خطر له أن صوفي تنتقم منه بالفعل وأن الأمر ليس غضبًا وسينتهي وليس مرارة وستزول، انقبض صدره وأحس قهرًا أجبره على العودة إلى حيث كان مُنكس الرأس، مُتهدل الكتفين.

حاول استرضاء السيد هيرتس لعله يحصُل منه على ما يفيد، اعتذر له عما سلف ليرق قلبه، أقسم أنه لم يسعْ يومًا إلى إفساد علاقة الرجل بإبنته ولم يحاول، ولما عساه يفعل؟ لقد أحب صوفي فعلا وأخلص لها ولم يلتفت إلى أي مُنغصات

قد تعكر صفوهما، لم تطلب منه صوفي يومًا التقرب إلى أبيها ولم يفعل هو ربما لقصور في فهمه أو رغبة منه في الاستحواذ على كامل اهتمام صوفي، ولو كانت قد طلبت منه أن يعتذر لأبيها لنفذ على الفور دون مناقشة، لكن الحقد الذي امتلأ به صدر الرجل على شريف قطع عليه كل الطرق، لقد انتزع ابنته الوحيدة منه انتزاعًا، لقد اراد لها أن تعمل معه، أراد لها زوجًا من بني جنسها، بني دينها، ف السيد هيرتس كاثوليكي مُتدين يحرص على ارتياد الكنيسة بانتظام، كما كان في شبابه خادمًا في كاتدرائية كولونيا على نهر الراين.

خمس سنوات وهو حيران يحس في أعماقه عجزًا يخنقه، هاجس يُسهد جفنيه، أين ليليان؟ عشر سنوات مضت وهو يتساءل كيف صارت؟ عشرون عامًا مضت الآن لابد أنها استوت شابة يافعة جميلة مُشرقة، لكنها حقًا صارت غريبة عنه حتى لو قُدر لهما أن يلتقيا فلن يعرفها ولن تلحظه، يا إلهي ما أقسى عقابك يا صوفي وما أبشع انتقامك.

ولأن الطائر لابد له أن يعود يومًا عاد شريف إلى وطنه وحيدًا، هزيلًا، هرِمًا، جسده يابس كالقش لا طراوة فيه، عاد مهزومًا، حاملًا معه قهره وألمه الذي اعتصر قلبه ونهش جوفه، يضمه صندوق الموتى بين جنباته ليُصلي عليه أهالي بلدته في ريف مصر، ثم يُسارعون به إلى مدفن الأسرة ليُواري جسده الثرى، فلن يجد من يحنو عليه كتراب وطنه، يجمعه اللحد أخيرًا مع والدين حرمهما نفسه وبره فحرمه الله ما تهفو غليه نفسه، حرمه لقاء ليليان تلك التي تقف كل صباح ومنذ عشر سنوات في خشوع أمام تمثال للعذراء مريم تُرتل صلواتها وتطلب رحمة وغفرانًا يتغمد روح والدها الذي توفي في حادث طائرة ولم

يتم العثورعلى رفاته، هكذا أخبرتها أمها التي ترملت شابة في السابعة والثلاثين من عمرها، ثم تُضيء شمعة وتُقبل صوفي وتُسرع مغادرة وهي تلوح لها مبتسمة فقد تأخرت وسيُعاقبها مديرها لامحالة، فتُبادلها أمها الابتسامة وتودعها قائلة: – لا تتأخري كثيرًا في المساء، تذكري أني هنا أتضور جوعًا في انتظاركِ صغيرتي، أحبك كثيرًا، فأنتِ كل أهلي ليليان.

نعمة بحمد الله

obeikan.com